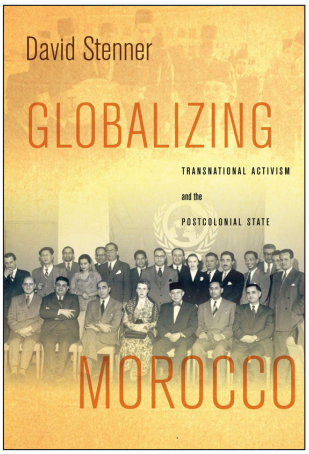

David Stenner.- *Globalizing Morocco: Transnational Activism and the Postcolonial State* (Stanford: Stanford University Press, 2019), 289p.

ديڤيد ستينر.- تدويل قضية المغرب: النشاط عبر الوطني ودولة ما بعد الاستعمار (ستانفورد: منشورات جامعة ستانفورد، كاليفورنيا، 2019)، 289 ص.

أسال البحث في تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب مداد أقلام الكثير من الدارسين من حقول معرفية متنوعة المشارب وبمقاربات مختلفة المداخل. وفي أحيان كثيرة، يصعب خوض مغامرة البحث في موضوع يعتريه الكثير من الفراغات والمناطق المعتمة، إما لشح الوثائق أو لاعتبارات مرتبطة بحساسية الخوض في معالجة ماض قريب جدا لازالت قضاياه ممتدة في حاضر الوطن.

وتكمن أهمية كتاب "تدويل قضية المغرب: النشاط عبر الوطني ودولة ما بعد الاستعمار" موضوع هذا العرض في مقاربة كاتبه ديڤيد ستينر (David Stenner) القائمة على منهج تحليل الشبكة الاجتماعية (Social Network Analysis)، ويتعلق الأمر بمقاربة غير تقليدية لتاريخ الحركة الوطنية في المغرب، أولت أهمية كبرى لدور الفرد أو مجموعة من الأفراد في نسج شبكة من الوسطاء (Bridges)، اضطلعوا بدور أساسي في لفت الانتباه للقضية الوطنية، ومن تم استقطاب مجموعة من المساندين الذين أسهموا بفاعلية في خدمتها بالمحافل الدولية.

تبلورت فكرة هذه الدراسة بعثور ستينر على رصيد من الرسائل الخاصة بالأكاديمي الأمريكي روم لاندو (Rom Landau) يتكون من مراسلاته المتبادلة مع زعماء الحركة الوطنية بالمغرب، والذي يعد أحد الوسطاء الرئيسيين الذين قاموا بدور فعال في جلب تعاطف مراكز القرار الأمريكي بغية مساندة مسألة تحرر المغرب من الاستعمار؛ فقاده فضوله البحثي نحو مقام طويل الأمد بالمغرب حصل فيه على شهادات مباشرة، كما استطاع النبش في مواد الخزانات الخاصة غير المنشورة، فكانت الحصيلة كنزا وثائقيا دفعه لخوض مغامرة بحثية بنى فيها فرضيته على مصادر تعتبر "غير رسمية" في عرف بعض المؤرخين التقليديين.

لقد شكل أولئك الوسطاء، مغاربة أو أجانب، محور هذه الدراسة باعتبارهم جزءاً من بنية شبكية تقوم على مفهوم الرأسمال الاجتماعي، حيث تم التركيز على نسيج العلاقات البينية داخلها أكثر من الاهتمام بأعمدتها كفاعلين فرديين (11). وتتبع ستينر عناصر هذه الشبكة عبر خمس محطات شكلت عناوين فصول الكتاب: طنجة، مصر، باريس، نيويوك ثم الرباط،

منطلقا من التساؤل حول عوامل نجاح الفاعلين الوطنيين في إيصال قضية "مملكة هامشية في الشمال الغربي لأفريقيا" للصحافة الدولية ولأروقة الأمم المتحدة (2).

حرصت مكونات الحركة الوطنية على تقديم نفسها كجبهة منسجمة تقف خلف قيادة السلطان محمد بن يوسف باعتباره رمزا للوحدة الوطنية، بالرغم من تقسيم المغرب إلى منطقتي استعمار فرنسي وإسباني. ولذلك، قدم الوضع الدولي الخاص بطنجة إطارا ملائما لتدويل مسألة استقلال المغرب. ولعل أنه من أبرز العوامل التي ساعدت على ذلك كونها ملتقى للدبلوماسيين والصحفيين الأوروبيين والأمريكيين والعرب، دون استثناء المستثمرين والمثقفين العابرين أيضا. لقد كانت طنجة قطبا يربط بين الداخل والخارج في ظرفية حطت فيها الحرب العالمية الثانية رحالها في أراضي شمال أفريقيا (20)، ولاحت في الأفق بوادر توتر العلاقات الدولية في سياقات الحرب الباردة. ولذلك كان هاجس الحركة الوطنية الأكبر هو كيفية الاستفادة من كل ذلك بما يخدم القضية الوطنية.

يأخذنا الكاتب، بأسلوب شيق يغلب عليه الطابع الحكائي أحيانا، إلى أجواء تشكيل حزب الاستقلال وحزب الإصلاح الوطني للجبهة الوطنية سنة 1951. وبالتزامن مع رحلة السلطان إلى طنجة سنة 1947، أسس محمد الصبيحي "نادي روزفلت" تخليدا لذكرى رئيس دافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وتعزيزا لمساعي التقارب بين الشعبين المغربي والأمريكي. وقد حظيت زيارة محمد بن يوسف لطنجة بتغطية الصحافة الأوروبية والأمريكية والمصرية، مما اعتبره الكاتب خطوات ناجعة في طريق تحقيق مسعى تدويل مسألة تحرر المغرب من الاستعمار.

وموازاة مع ذلك، ركز ستينر على نشاط الوسطاء الأجانب باعتبارهم جزءا من شبكة امتدت داخل المغرب وخارجه. وفي سياق دولي باتت طنجة تمثل فيه قطبا لجلب الاستثمارات، ساهم المستثمرون الأمريكيون في القيام بحملة اسفرت عن حشد الدعم والتأييد للقضية الوطنية. وفي هذا الصدد، تم تسليط الضوء على نشاط روبرت رودس (Robert E. Rodes)، رئيس الجمعية الأمريكية للتجارة بالدارالبيضاء، وأيضا على كينيث برادا (Keneth Prada)، ممثل شركة كوكا كولا للمشروبات الغازية بالمغرب؛ إذ سعى هؤلاء لإقناع واشنطن بصلاحية المغرب ومنافعه المرتقبة كمناخ ملائم للاستثمار وتعزيز النفوذ الاقتصادي الأمريكي. وبهذا باتت شركة كوكا كولا راعيا رسميا لإقامة احتفالات عيد العرش، كما قدمته كمشروب مفضل لدى العائلة الملكية.

ولم تكن سلطات الحماية الفرنسية تنظر بعين الرضا لهذا النشاط الأمريكي المتزايد، لأن هنري بوني (Henri Bonnet)، السفير الفرنسي المعتمد بالمغرب، كان مقتنعا بعمالة روبرت رودس مع الاستخبارات الأمريكية (32)، بينما اعتبرت سلطات الإقامة العامة أنشطة شركة كوكا كولا تهديدا فعليا لسياساتها (37). وفضلا عن هؤلاء، لفت الكاتب الانتباه للدور الذي قام به الصحافيون، فتوقف في هذا الصدد مطولا عند شخصية روم لاندو الإنجليزي التي أسرته بغموضها. فهو الرحالة الذي انتهى به المقام في طنجة بعد جولة في الشرق الأوسط. وقد أصبح مقربا من القصر وقادة الحركة الوطنية، وكتب مقالات خص بها الصحافة البريطانية وظفها جيدا في التعريف بقضية المغرب، بالإضافة إلى نشر كتابه عن السلطان محمد بن يوسف، لينتهي به المطاف بالولايات المتحدة باعتباره أحد أبرز الوسطاء الخارجيين بين المغرب ومراكز القرار في واشنطن. وتبعا لكل هذه العوامل، يخلص ستينر إلى أن تدويل المسألة المغربية، قد بدأ من الداخل (49)، ومن هنا تكمن أهمية طنجة باعتبارها مدينة دولية.

وينتقل بنا الكاتب بعد ذلك إلى مصر باعتبارها البلد المشرقي الذي شهد نشاطا مكثفا لزعماء الحركة الوطنية؛ مما أسفر عن نسج شبكة فريدة من الوسطاء، أسهمت بفاعلية في تحريك مسألة تحرر المغرب في كواليس جامعة الدول العربية، باعتبارها آلية مناسبة لإيصال الصوت المغربي إلى الأمم المتحدة. وفي هذا الصدد، استغلت كافة القنوات الرسمية منها وغير الرسمية لحشد التأييد العربي. وقد تشكلت شبكة الوسطاء العرب من شخصيات بارزة، مثل عبد الرحمن عزام باشا، رئيس جامعة الدول العربية، وأمين الحسيني مفتي القدس، ومحمد أبو الفتح، القيادي البارز في حزب الوفد، فضلا عن بعض أعضاء جماعة الإخوان المسلمين. كما عزز تأسيس مكتب المغرب العربي سنة 1947 بالقاهرة شبكة الوسطاء، فأتاح إمكان توسيعها لتشمل تدريجيا كل بلدان الشرق الأوسط (67).

غير أن العلاقات التي استغرق نسجها ردحا من الزمن تظل معرضة للتفسخ بمجرد حدوث أي تغيير في السياقات. وهذا ما حصل فعلا بعد اندلاع ثورة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر سنة 1952 (72-82). وعلى خلاف ما تحقق في ظل النظام الملكي السابق، لم يحظ النشاط الوطني بعدئذ في مصر بترحيب النظام الجديد. ويفسر ديفيد ستينر ذلك بالتقارب الحاصل بين بعض رواد الحركة الوطنية وحركة الإخوان المسلمين من جهة، فضلا عن تباين الخلفية الاجتماعية والإيديولوجية للنظامين المصري والمغربي من جهة أخرى. وعلى عكس الأوضاع الطارئة في مصر، كان السياق العام في فرنسا، المركز الاستعماري ملائما جدا، إذ لعبت ملابسات نهاية الحرب العالمية الثانية في صالح المغرب.

وأسهمت الظروف المحيطة بالاحتلال الألماني لفرنسا، وبموازاة مع تداعيات نهاية نظام ڤيشي (1940- 1944)، في خلق نخبة سياسية وفكرية جديدة فتحت نقاشا حول الإكراهات السلبية للسياسة الاستعمارية لفرنسا وتأثيرها على وضعها الداخلي. وهذا ما تفطن حزب الاستقلال لمحاولة الاستفادة منه بما يخدم قضية التحرر المغربي من ربقة الاستعمار. ولذلك أصبحت باريس، المكان الأمثل لتدويل قضية المغرب (91)، كما شكلت محورا لنشاطه الممتد عبر أوروبا وشمال إفريقيا (99). وقد تعزز هذا الأمر، باحتضان العاصمة الفرنسية لجالية مغربية مهمة شملت الطلبة والعمال ورجال الأعمال، كما أدرك زعماء الحزب مدى أهمية توظيف الرأسمال البشري المغربي الموجود في باريس لخدمة القضية الوطنية (89).

تشكلت شبكة الوسطاء الباريسية من بعض أعضاء حزب الاستقلال أمثال المهدي بن عبود، وعبد الرحيم بوعبيد، وأحمد العلوي. وقد حرص هؤلاء على نسج علاقات عميقة مع شخصيات تنتمي إلى النخبة الفرنسية الجديدة، مما عزز شبكة الوسطاء الأجانب بعناصر فرنسية سرعان ما انخرطت في انتقاداتها لسياسة الإقامة العامة في المغرب، وحركت في إثر ذلك النقاش حول إنهاء الاستعمار ببلدان شمال لإفريقيا. ويعتبر شارل أندري جوليان (Charles-André Julien) وجان رو (Jean Rous) من أبرز الوسطاء الذين دفعوا بقضية المغرب نحو مفاوضات إيكس ليبان (Aix-Les-Bains) سنة 1955.

وأولى ديڤيد ستينر أهمية خاصة لمحطة نيويورك بحكم احتضانها مقر الأمم المتحدة، المؤسسة التي أنيط بها دور إعادة ترتيب أوضاع عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومنذ البداية، أدرك الوسطاء المغاربة مدى أهمية الانخراط في الدبلوماسية الدولية لتحريك القضية الوطنية. إلا أن العائق الأكبر تمثل في غياب أية تمثيلية رسمية للمغرب، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو لدى المؤسسات الدولية. ولهذا كان اللجوء إلى دبلوماسية الظل وأشكال العمل غير الرسمية خيارا ضروريا. وفي هذا الإطار، عمل كل من المهدي بنونة وروم لاندو على نهج مقاربة براگماتية قائمة على الاستفادة من كل مكونات المشهد السياسي الأمريكي، بداية بأفراد اللوبي اليهودي، ونهاية بإليانور روزفلت (Eleanour Roozvelt) زوجة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد عمل الوسطاء المغاربة والأجانب على التعريف بمسألة المغرب عبر توظيف الصحافة الأمريكية والقيام بأنشطة استهدفت المجتمع المدني. كما حرصوا على ربط علاقات بشخصيات نافذة داخل مراكز القرار الأمريكية. وفي هذا الصدد، ركز الكاتب على أنشطة "مكتب المغرب للمعلومات والتوثيق" الذي أسسه بعض أعضاء حزب الاستقلال، كما توقف عند مساعي روم لاندو لإيصال الصوت المغربي إلى مسامع الولايات المتحدة الأمريكية دولة وشعبا، حيث

أورد تفاصيل لقائه بزوجة الرئيس الأمريكي إليانور روزفلت، التي وعدته بتحريك ملف المغرب بالأمم المتحدة (147). وعلى هذا الأساس، اعتبر ستينر الحملة التي قادها المغرب بإشراف لاندو ورعايته، حملة ناجحة أفلحت في تحقيق أهدافها بالرغم من الصعوبات، وضرورة الاقتصار على إمكان الاستفادة من إيجابيات تحريك العلاقات الخاصة.

وختم الكاتب دراسته بالعودة إلى المغرب، فاتخذ من الرباط المحطة الأخيرة في هذه الدراسة. واتضح بأن المهمة الجديدة للوسطاء الفاعلين في الدفع بقضية التحرر الوطنية نحو نهايتها، قد تحددت برجوع السلطان محمد بن يوسف من المنفى سنة 1955. وكان ذلك مؤشرا على الدخول في مرحلة جديدة تطلبت توظيف كل الوسائل الممكنة لبناء مشروعية دولة ما بعد الاستقلال (165-166). وفي هذا الصدد، يقدم ستينر السلطان كمهندس لشبكة جديدة جعلت من الوسطاء الذين رافقناهم منذ بداية الدراسة، أحد أعمدة بناء الدولة المركزية، مما أضعف نفوذ حزب الاستقلال، وحوله إلى صفوف المعارضة (163). وهكذا أصبحت العناصر الفاعلة داخل شبكة الوسطاء المغاربة تتحرك ضمن محيط القصر، كما انخرطت في الدواليب الخاصة ببيروقراطية الدولة الجديدة. وأما الذين لم يتحقق توظيفهم من بينهم في مشاريع البناء الداخلي، فقد وقع الحرص على تعيينهم سفراء لدى عدد من عواصم العالم، مما أسهم في تعميق نزيف الأطر لدى أطراف المعارضة السياسية (172).

لقد حرص السلطان كذلك على الاحتفاظ بعلاقة وطيدة مع الوسطاء الأجانب الذين أدوا خدمات معتبرة لفائدة المغرب في المحافل الدولية. وفي هذا الصدد، نذكر مرافقة كينيث باندار للسلطان إبان زيارته للولايات المتحدة الأمريكية سنة 1957 (178)، كما أصبح روم لاندو جسرا فاعلا لتحقيق التقارب بين هذه الأخيرة والمغرب المستقل. وهذا فضلا عن نشاطه الأكاديمي الذي جعله يحمل لقب "مؤرخ القصر،" كما أسهم في إرساء برنامج للدراسات حول المغرب بجامعة محمد الخامس استهدف طلبة أمريكا الشمالية. أما مهمة تأسيس الجامعة المغربية، فقد عهد بها للمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان (176).

لقد قدمت دراسة ديڤيد ستينر المغرب بصورة البلد الذي أجاد الاستفادة من المتغيرات الدولية التي أعقبت سنوات الحرب العالمية الثانية، إذ استثمر بنجاح شبكة علاقاته الخاصة للتمكن من طرح مسألة تحرر المغرب من الاستعمار داخل هيأة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. ثم اختار الاشتغال ضمن المحور المضاد لزحف الشيوعية، لذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية وجدت فيه حليفا مناسبا للمعسكر الغربي الرأسمالي في أفريقيا (202). وبفضل شبكة وسطائه، نهج استراتيجية غير رسمية أسفرت عن حصول المغرب على الاستقلال. غير أن

الكاتب اعتبر هذا النجاح المبهر قصير المدى، مادام قد حول شبكة الوسطاء إلى عناصر أدمجت ضمن بنية هجينة كانت بديلا لمؤسسات سياسية قوية من المفترض أن تسهم في بنائها (205).

ولا تكمن أهمية هذه الدراسة في مقاربتها الجديدة لتاريخ الحركة الوطنية فحسب، بل تكتسيها أيضا من قوة راهنيتها؛ لأن المغرب استمر في نهج استراتيجية دبلوماسية الظل بغية تحريک كثير من قضاياه الأساسية في المحافل الدولية. وفي هذا الصدد، واصل تعزيزه باستمرار لشبكة الوسطاء باستقطاب عناصر جديدة تعتمد على خيرة أطر المغرب، بموازاة مع تمتين صداقات ناجعة بالخارج. وهذا ما قد يفسر كثيرا من امتدادات قضايا الكتاب الراهنة، وفي مقدمتها مخرجات قضية الصحراء المغربية. ولعل الاتفاق الثلاثي المبرم بين المغرب والولايات المتحدة وإسرائيل في العاشر من دجنبر 2020، الذي أسفر عن الاعتراف الأمريكي بمغربية الصحراء، يدخل في هذا الإطار.

سعاد بنعلي
أستاذة باحثة في التاريخ،
الرباط، المغرب